

الديمقراطية المراوغة والدولة الفاشلة!

صلاح الدين حافظ

الاهرام

30-01-2007

لا نحتاج لكثير من الجهد لنثبت كيف أن دعاوي الديمقراطية مقرونة بنماذج فشل الدولة، في هذه المنطقة من العالم، قد أدت فيما أدت إليه إلى شيوع العنف جنبا إلى جنب مع انتشار الفقر والإحباط والتطرف..

ولا نحتاج لمزيد من البراهين والأدلة، لنؤكد أن ما نعانيه من هذه النتائج، قد جاء بأيدينا في الداخل، مصحوبة بأيديهم من الخارج، وكلها في النهاية أياد تحالفت علينا، دفاعا عن مصالحها المشتركة، مصالح من يريد الاستمرار قابضا علي صولجان الحكم متحكما في الثروة، جامعا بين زهو السلطة وبريق المال، ومن يريد الحفاظ علي مصالحه الحيوية العديدة، في ظل الهيمنة الكونية الجديدة!

هكذا وجدنا أنفسنا محاصرين بين خيارين أحلاهما مر، العنف المحتمل بالديمقراطية، بل بدعاواها، أو ادعاءات الديمقراطية المتسامحة مع العنف، وهو ما يثبت لنا أن كل ما قيل ويقال من جانب أمريكا وحلفائها، عن اجراء اصلاحات ديمقراطية في البلاد العربية، بداية بمصر، لتكون مقدمة رمح لمحاربة العنف والارهاب والتطرف، إنما هو كذب بواح، ومخادعة وتدليس ومخاتلة، إن كانت قد انطلت علي البعض في فترات سابقة، فهي قد انكشفت الآن بأجلي صور الفضيحة!

ومنذ أن تبنت ادارة الرئيس الأمريكي بوش حملة نشر الديمقراطية في بلادنا، في عام 2002، وحتى الآن، مقرونة بحملة الحرب المقدسة ضد الارهاب، ونحن لا نكاد نلمح تقدما حقيقيا في أي اصلاح ديمقراطي حقيقي في أي دولة من دول المنطقة، مثلما نتأكد الآن أن وتيرة العنف قد ازدادت حدة، منتقلة بحرية واضحة من أفغانستان إلي العراق، ومن العراق إلي السودان، ومن فلسطين إلي الصومال.. الخ.

فبأي حجة يعاود الرئيس بوش حديثه الممل عن الديمقراطية في الشرق الأوسط، وعن الانتصار في الحرب ضد الارهاب الاسلامي!!

ففي خطاب حالة الاتحاد الذي ألقاه بوش الاسبوع الماضي، لم يتوقف طويلا أمام خطته في فرض الإصلاحات الديمقراطية علي الدول العربية، كما كان يجاهر في الماضي القريب، بل إنه عبر هذا المأزق سريعا، واكتفي بالقول بما معناه إن افتناع الدول المعتدلة مثل مصر والسعودية تحديدا، بالديمقراطية، سيؤدي إلي مقاومة العنف ويساعد في مواجهة الارهاب...

وفي تفسيره لذلك، قال متحدث باسم الخارجية الامريكية إن ادارة الرئيس بوش لن تغير اتجاهها بدعم التحولات الديمقراطية في البلاد المذكورة، ولن تتوقف عن مساعدة هذه النظم في الاستجابة لمطالب شعوبها

دون تدخل مباشر من جانب امريكا...

ولعلنا نضيف إلى ذلك استشهاده الآخر، يؤكد ما ذهبنا إليه منذ سنوات، من أن امريكا غير جادة في مسألة نشر الديمقراطية ومقاومة نظم الفساد والاستبداد الحاكمة، لأنها تفضل في كل الأحوال الحفاظ على مصالحها الحيوية في المنطقة، حتى لو تحالفت مع نظم تراها استبدادية وفسادة!

والاستشهاد هو ببساطة المقارنة، بين الحديث المحاضرة الشهير للسيدة كوندوليزا رايس وزيرة الخارجية الامريكية، في الجامعة الامريكية بالقاهرة، خلال عام 2005، الذي أقلت خلاله بمجموعة من الصواريخ الموجهة حول اصرار واشنطن على اجراء اصلاحات ديمقراطية في مصر والبلاد العربية، وصولا للتهديد بوسائل الضغط الخشن، الأمر الذي أثار ابتهاج المتأمرين العرب الذين أدمنوا استعداد امريكا حتى على بلادهم، ثم نقارن ذلك مع التصريحات الهادئة النيرة الناعمة الملمس لنفس الوزيرة، التي أدلت بها عن تباطؤ الاصلاحات الديمقراطية في مصر، خلال زيارتها الأخيرة للاقصر قبل أيام...

لا شك أن اليون شاسع بين الموقفين لنفس الإدارة ولنفس المتحدثين باسمها، فالعبرة هنا ليست مصر أو غيرها من الدول المعنية، وليست الديمقراطية ولا غيرها من المبادئ والقيم، ولكن العبيرة بحماية المصالح الحيوية الامريكية، وبكيفية تجنيد ما تسميه مجموعة الدول العربية المعتدلة مصر والاردن ودول الخليج الست، للمساعدة الفعالة في انقاذها من المقتلة الدائرة في العراق، وللاحتشاد معها ضد ايران وسوريا وحزب الله في لبنان وحماس في فلسطين، الذين تراهم محور الشر ومنتجي العنف والارهاب!

وبالتالي فإن عصا الديمقراطية الغليظة التي رفعتها واشنطن على مدي السنوات الماضية، ضد النظم الحاكمة في المنطقة، كان هدفها تخويف هذه النظم وإرباك سياستها، ودفعها إلى مزيد من الانصياع والخضوع للاستراتيجية الامريكية، دون تيرم أو حتى تملل، وحتى لو أدى هذا الانصياع إلى التضحية ببعض المصالح والأهداف العربية، وأهمها الاستقلال والسيادة الوطنية!

ومن الواضح أن طرفي شد حبل الديمقراطية، النظم العربية الحاكمة والإدارة الامريكية، قد اكتشفا في وقت واحد نقاط القوة والضعف عندهما معا، ووجدا أن العنف والإرهاب هدف مشترك يجمعهما في صف واحد ويجند قوامها في خندق واحد مما يدفعهما إلى التعاون والتنسيق الأكبر، فتخلت الإدارة الامريكية عن ورقة الاصلاح الديمقراطي، وتخلت النظم العربية عن ترك امريكا تغرق في المستنقع العراقي الدامي... وقررا العمل المشترك في هذا الإطار، وضمن استراتيجية بوش الجديدة، التي إن قوبلت بترحيب محور الاعتدال العربي صراحة، فإنها للغرابة قوبلت بمعارضة أمريكية واسعة داخل الكونجرس وفي الشارع وفي الإعلام وبين جماعات المصالح!!

وبقدر ما اعتبر المعارضون الأمريكيون لاستراتيجية بوش هذه، أن التأييد الصارخ للمعتدلين العرب لهذه الاستراتيجية، هو بمثابة نفاق وانتهازية سياسية، يحتمي بها المستبدون المعادون للديمقراطية في الشرق الأوسط، بقدر ما أن ادارة بوش توصلت لصياغة جديدة، قوامها أن من يؤيدها في المنطقة هم الديمقراطيون والليبراليون الحقيقيون، بصرف النظر عن كل ما تقوله شعوبهم عنهم، بل عن كل ما قالته هي عنهم من قبل!

هكذا وقعت قضية الاصلاح الديمقراطي، ضحية بين طرفي شد الحبل، بعد أن تحالفا معا ضدها، وياتت هذه القضية متراجعة من حيث الفكر والتطبيق، من حيث الوعود والعهود التي تبتلع وتتقضم، ومن حيث الخطوات والاجراءات التي تتلأأ ثم تجهض نهائيا، رغم كل مطالب الشعوب وتطلعها للحرية والسيادة، ولم يحدث ذلك بسبب تخلي امريكا عن ضغوطها، بقدر ما حدث نتيجة المقايضة المشبوهة، وتيقن الحكام من أن عصا الديمقراطية الامريكية، لم تكن غليظة ولن تكون!!

ونظن أيضا أن طرفي شد الحبل، قد توافقا أخيرا على أن تبعات الديمقراطية ونتائج التحول الاصلاحية

الحقيقي, هي تبعات ونتائج معادية لهما ومضادة لمصالحهما المشتركة, وهاهو النموذج الفلسطيني يقدم الدليل, ففي ظل الديمقراطية والانتخابات الحرة الشفافة, نجحت حماس الموسومة بالراديكالية الاسلامية, مثلما تمكنت التيارات الاسلامية السياسية, في اثبات وجودها, عبر صناديق الانتخابات في مصر والاردن والكويت والبحرين والمغرب واليمن وغيرها, بما قدم للطرفين مبررا للاتقضاض, ليس فقط على هذه التيارات, ولكن على كل مقولات الاصلاح الديمقراطي, حتي وإن ظلت عمليات التجميل الاصلاحية والتزويق الديمقراطي قائمة ومستمرة!

في امريكا مفكر مشهور عالميا هو نعوم تشومسكي ليبرالي الفكر يهودي الديانة, معاد للصهيونية ولعدوانية اسرائيل, بقدر ما هو معاد لغطرسة القوة الأمريكية المنفلتة, أصدر أخيرا كتابا مهما بعنوان الدولة الفاشلة, ولم يجد بالطبع نموذجا للدولة الفاشلة, أفضل من الولايات المتحدة الأمريكية, لأنها تطبق المعايير المزدوجة, وتحدث بلسانين, أولهما أخلاقي عن قيم الحرية والعدالة والمساواة, وثانيهما انتهازي برجماتي يمارس العنف المفرط, ويشن الحروب الدامية غير المبررة أخلاقيا, ويرتكب الجرائم والفظائع والمذابح, باسم الدفاع عن قيم الحرية والديمقراطية, والمحصلة هي أن هذه دولة فاشلة, لأنها بفضل هذه المعايير المزدوجة والممارسات الانتهازية, تجلب للشعب الأمريكي عداوات الآخرين وكراهيتهم, وتعرض الأمن القومي الأمريكي للاعتداءات والدمار, وتستفز الآخرين لمقابلة عنفها بعنف مضاد.

يضيف تشومسكي, أنه باسم العدالة والقيم الاخلاقية ومبادئ الحرية, شنت امريكا وتشن أسوأ الحروب ضد الآخرين, وتستخدم قواتها الطاغية في فرض الحق الذي تدعيه وتنتهك حقوق الانسان, مثلما تنتهك سيادة الدول واستقلال الشعوب, وتمارس العنف والارهاب علانية باسم الشرعية الدولية, وهي حين تفعل ذلك لا تمل الحديث الممل عن فرض الديمقراطية وترويج قيم الحرية الأمريكية!!

ثم يتنبأ تشومسكي, بقرب نهاية العالم وقيام القيامة, نتيجة المبالغة الأمريكية في زيادة النزوع العسكري واعتماد القوة المسلحة, سواء عن طريق ترسانتها النووية, أو عن طريق عسكرة الفضاء, أو عن طريق تلويث البيئة الذي تتحمل امريكا المسؤولية الرئيسية عنه, باعتبارها اكبر دولة صناعية واكثر دولة استخداما للمحروقات, والمتسبب الأول في انبعاث الغازات وبالتالي حدوث الاحتباس الحراري.

ليس هذا فقط, ولكن تشومسكي, يؤكد أن السياسات العدوانية والممارسات الخاطئة, التي تمارسها الإدارة الأمريكية الحالية بقيادة بوش, خصوصا سياسة شن الحروب في العالم, وتحديدًا في أفغانستان والعراق, فضلا عما تفعله اسرائيل بالفلسطينيين, قد أدى إلي زيادة العنف وصعود التيارات الدينية الراديكالية, بل وإلي تحويل الارهاب إلي هدف يرتجي, لكي يقاوم الارهاب الأمريكي, أما حكاية الاصلاحات الديمقراطية فلا مجال لها في عرف الدولة الفاشلة!!

تشومسكي لا يتحدث للامريكيين فقط, ولكني اعتقد أن حديثه هذا في كتابه المهم, مهدي إلي الحكام العرب جميعا, والي جماعة المتأمركين العرب تحديدا... لعلمهم يقرأون ويستوعبون ويفهمون!!

** خير الكلام: يقول ابراهيم ناجي: إن أجمل الأحلام ما ولي سريعا
يكن حلما تولي مسرعا